وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة كركوك
كلية الزراعة - الحويجة
قسم النباتات الطبية و الصناعية

دلـيـل
التوقيعات في العصر العباسي

اعداد
م. م. نوره غزاي علاوي

2023

محتويات الدليل

ت	الموضوع	رقم الصفحـــة
1	الفصل الأول (التوقيعات بين العصور الأدبية)	1-3
2	المطلب الأول: العصر الراشدي	1
3	المطلب الثاني: العصر الأموي	2
4	المطلب الثالث: العصر العباسي	3
5	الفصل الثاني (الدراسة الفنية)	4-11
6	المطلب الأول: الإيجاز	5-7
7	المطلب الثاني: الصنعة	8-9
8	المطلب الثالث: التصوير	10-11

الفصل الأول: التوقيعات بين العصور الأدبية

المطلب الأول: العصر الراشدي

ظهرت التوقيعات بعد اتساع الدولة الإسلامية، حيث أخطر الخلفاء والأمراء والولادة إلى كتابة توجيهاتهم وأحكامهم على ما يرفع إليهم من مظالم، ومطالب، وكانت أغلب هذه التوقيعات اقتباساً من آية قرآنية أو حديث شريف، أو مثل مشهور، ومن أقدم ما عرف من هذا الفن، ما جاء عن الخليفة أبي بكر، في توقيعه على رسالة خالد بن الوليد الذي كتب يستشيره في أمر الحرب، وكيف تكون، فكان رد أبو بكر : (احرص على الموت توهب لك الحياة) .

وقد عقد الثعالبي بابا في كتابه خاص الخاص عن التوقيعات وسما جاء فيه إن سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب من الكوفة يستأذنه في بناء دار للإمارة فوقع إليه : ((ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر)) . وكتب أهل مصر إلى عمر بن الخطاب يشكون إليه مروان بن الحكم، فوقع في كتابهم: ((فإن عصبوك فقل إني بريء مما تعملون)).

ثم شاعت التوقيعات في عهد كل من الخلفاء الراشدين : عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، لشيوع الكتابة، وامتد هذا الشيوع بصورة أوسع في عصر بني أمية .

إن التوقيعات التي وصلت إلينا عن الخلفاء الراشدين تستار ببلاغة الإناء وإيجاز التعبير، وموافقتها للصواب، ومن الملاحظ أيضاً إن التوقيعات في عصر صدر الإسلام تعد قليلة جداً إذا ما قورنت بالتوقيعات بالعصور التي تلتها، وربما يعزى السبب إلى أن هذا الفن الأدبي لا يزال آنذاك في بداية نشأته.

المطلب الثاني: العصر الأموي

تعد التوقيعات في العصر الأموي امتداداً طبيعياً لها في عصر صدر الإسلام، بعد أن عرفت واستعملت، وغدت في العصر الأموي فناً أدبياً، حيث اعتاد كل خليفة أموي أن يوقع الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع عليها ويعرف مضمونها .

وقد انتشر هذا الفن الأدبي ونما بسبب عناية الخلفاء والسلاطين، والأمراء بإنشاء (ديوان الإنشاء) وكان هذا الديوان يلقي العناية الكاملة من رجال البلاط، وكان يتولى هذه المناصب من نبغ من المحدثين من رجال الأدب .

وقد وصلت نماذج كافية لتوقيعات خلفاء بني أمية ابتداء من معاوية بن أبي سفيان وصولاً لمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية في المشرق.

ومن توقيعات الأمويين، وقع معاوية بن أبي سفيان في كتاب: ((نحن الزمان من رفعنا ارتفع، ومن وضعناه اتضع)) ، وكتب زياد إلى معاوية يخبره بطعن عبد الله بن عباس في خلافته، فوقع في كتابه : ((إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مسلاخ واحد وذلك حلف لا يحله سوء رأيك)).

ووقع يزيد بن عبد الملك إلى صاحب خراسان : ((لا تترك حسن رأي، فإنما تفيده عثرة)).

المطلب الثالث: العصر العباسي

حل العصر العباسي فكان العصر الذهبي الذي أرست فيه دولة الإسلام أركانها، واتخذت فيه الحضارة مكانها، وأضاءت شتى العلوم سمائها، ومع ازدهار الكتابة الفنية وتعدد أغراضها، حل فن التوقيعات، محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، وأصبح الكاتب البليغ حاجة ملحة في الدولة، وكاتب الديوان يحتاج أن يكون جيد الفهم، صحيح الذهن، عارفاً بأحكام الديوان، غير جاهل بها.

وقد تطور فن النثر الأدبي بوجه عام في العصر العباسي بسبب تعريب الدواوين، ونقل الثقافة الخارجية إلى العربية، وبسبب ازدهار الحياة السياسية والاجتماعية، وكثرة الأحزاب الفكرية والسياسية، وبهذا يعد هذا العصر عصر النهضة الحقيقية لفن التوقيعات.

وقع السفاح، الخليفة العباسي الأول في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم : ((من صبر في الشدة شارك في النعمة)) .

الفصل الثاني: الدراسة الفنية

يمكن القول إن التوقيعات العباسية اتسمت بخصائص أسلوبية وفنية مميزة، فقد امتازت بجملها القصيرة، وتراكيبها البسيطة، كما أن معظم التوقيعات مالت إلى الإيجاز الذي يحمل ألوانا من الفن تدل على مقدار ما وصل إليه الكتّاب من الدقة والمهارة في بناء الجملة وتركيب الألفاظ، إلا أننا نلحظ شيئا من الإطناب الذي امتد إلى بعض هذه التوقيعات فيما بعد. كما امتازت كثير من التوقيعات بالتوازن، وبروز السجع، فضلا عن تضمين الشعر والاقتباس من القرآن الكريم.

أما فيما يتعلق بالتصوير فلم تكن التوقيعات تعنى بالتشبيهات أو الصور إلا ما جاء عفو الخاطر من غير معاناة أو تكلف لأن جل اهتمامها كان ينصب على إصابة المعنى .

كما شاعت في التوقيعات بعض المحسنات البديعية مثل السجع والجناس والطباق والمقابلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن قصر التوقيع وعدم طول نصه جعل نصيبه من المميزات الفنية الأسلوبية ضئيلا إذا ما قيس بالنصوص الأدبية الأخرى، كالخطب والرسائل والوصايا والمقامات، وغيرها من ألوان النثر العربي، ومن هنا تحاول الباحثة في هذا الفصل أن تتلمس أهم الملامح التي ميزت التوقيعات العربية في العصر العباسي.

المطلب الأول: الإيجاز

بعد التوقيع ضربا من ضروب الكلام الموجز، فالإيجاز جوهر التوقيع وأهم خصائصه، فإذا طال التوقيع افتقد أهم مميزاته الأسلوبية، فالتوقيعات تعتمد الوجازة في التعبير، وهذا هو الأصل الذي يقول الكلاعي فيه: ((هذا النوع من الكلام مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار)).

وذهب ابن درستويه إلى أن التوقيع: ((إنما هو أمر أو نهي فالواجب أن يجري مجراهما لا غير وأن يثبت حرف الأمر أيما كان منه أمرا إذا لم يسم المأمور كما يثبت حرف النهي فيما كان منهيا عنه، ولا يجوز حذف واحد من هذين الحرفين)).

ويبدو من كلام ابن درستويه، إلى أن التوقيع إنما أمراً أو نهياً، ولا يأتي على غيرهما، وكلاهما - أي الأمر والنهي - رد شاف موجز.

وذكر ابن خلدون أن التوقيع يجب أن يكون ((بأوجز لفظ وأبلغه)) ، وهو بذلك يجمع إلى الإيجاز البلاغة، فحيثما كان الإيجاز كانت البلاغة، وهي النظرة التي عبر عنها النقاد العرب

القدامى.

واتفق المعاصرون على أن الإيجاز ملاك التوقيع، يقول حسين نصار: ((ألف الخلفاء والولاة أو كتابهم أن يردوا على بعض الرسائل التي تصل إليهم في جمل حاسمة امتازت بالإيجاز الشديد، ونالت إعجابا متزايدا على مر الزمان)).

ويقول أحمد الحوفي في ذلك: ((إن التوقيع قائم على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى الإيجاز ومقدرة على البيان، وسرعة خاطر، وحضور بديهة)).

ويرى مصطفى السيوفي أنها تعتمد على الإيجاز والاختصار الذي هو أساس البلاغة العربية، يقول: ((وقد سئل شيخ البيان العربي ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز ، ولا يتصور تأتيها إلا ممن وهب دقة الإدراك والبلاغة الأسلوبية، وحسن التقدير للمواقف والأمور التي تعرض عليه بطريقة أو بأخرى)) .

إن النفس العربية تميل إلى الإيجاز، وتؤثره على الإطالة والتوسع، كما أن الإيجاز من

خصائص اللغات السامية، يقول محمد نبيه حجاب في أصالة التوقيعات وعروبتها: ((وأنها نبعت من الصدور العربية لأنها من ضرورات الملك، واستبحار العمران فضلا عن طابعها الموجز

الذي هو من سمات الأساليب السامية لا الأراية المُطنبة)).

إن البلاغة تتحقق بالإيجاز، وحيث كانت البلاغة كان الإيجاز، فالإيجاز والاختصار هما أساس البلاغة العربية، والبلاغة هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون، فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري، ودقة إدراك الجمال، وتبين الفروق الخطية بين صنوف الأساليب. فرب كلام كان في نفسه حسنا خلابا حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه خرج عن حد البلاغة وكان غرضا لسهام الناقدين.

ويعد التوقيع مظهراً من مظاهر البلاغة إذ يستطيع الموقع أداء المعنى الوفير باللفظ القليل، وصاحب التوقيع، والغالب هو من أولياء الأمر في السلطة لا يتسع وقته للإجابة على الرقاع التي ترد إليه بكلام طويل، لذلك يعمد إلى إجابات موجزة يكون فيها الجواب المركز، وقد كان الموقع يلجا إلى الإيضاءات السريعة التي تتحقق في الإيجاز، وليس هذا فحسب بل كان الموقعون كثيرا ما يوصون غيرهم بالإيجاز، فقد وقع جعفر البرمكي إلى كتابه: "إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا .

ومن ذلك أيضا ما أورده ابن خلكان من أن المأمون أمر عمرو بن مسعدة أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص، وأن يوجز كتابه بحيث لا يتجاوز سطرا واحدا، فكتب : ((كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، معني بمن كتب له، وأن يضيع بين الثقة والعناية حامله، والسلام)).

كما أن الإيجاز يمثل اقتصادا في استعمال الورق ومعروف أنه كان هناك شح في أدوات الكتابة من قراطيس وأقلام، لهذا هذا بالموقعين إلى أن يكتبوا في أسافل الرقاع وظهورها وحواشيها. كما أنه يحقق فكرة الاقتصاد اللغوي، التي تقوم على أداء المعنى الوفير في اللفظ اليسير.

ويبدو أن كثرة الأعمال في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين اقتضت أن يبالغوا في الإيجاز في ردودهم، على أن هذا الإيجاز لم يستطع أن يعيش طويلا في ظل العصر العباسي، فقد تبدلت ألوان الحياة وتعقدت مرافقها، فضلا عن دخول العناصر غير العربية، فقد مرت مدة كان فيها كتاب اللغة العربية من هؤلاء الدخلاء، فأثروا في الكتابة العربية تأثيرا بعيدا، وحل التطويل والإسهاب رويدا رويدا محل الإيجاز والإجمال .

وهكذا بدأت التوقيعات في العصر العباسي تطول، فكانت بعض هذه التوقيعات تتكون من حرف واحد، وبعضها من كلمة واحدة، وأخرى تشكلت من كلمتين، بينما جاءت طائفة منها تتكون من جملة واحدة، وجاء معظمها يتكون من أكثر من جملة، في حين طالت بعضها لتتكون من فقرة قصيرة حتى وصل الأمر إلى أن طال التوقيع فأصبح بعضها على شكل رسالة قصيرة. ومن أمثلة التوقيعات العباسية التي امتازت بالإيجاز الشديد توقيع الصاحب بن عباد، فقد كتب بعضهم إليه رقعة فيها: "إن رأى سيدنا أن ينعم بما سألته إياه فعل". فزاد فيها ألفا، ورد الرقعة إلى صاحبها وبش بالتوقيع فلم يره وعرضها على أبي العباس الضبي فأراه الألف التي كتبها قدام فعل، أي (أفعل)، فجاء توقيع ابن العباد بحرف واحد أضافه، أجاب فيه طلب هذا السائل وأعطاه ما التمسه.

ومن التوقيعات التي تكونت من كلمتين، توقيع المهدي في قصة رجل شكا الحاجة: "أتاك الغوث .

إن توقيع المهدي على وجازته الشديدة، ناطق برد لهفة هذا المحتاج، فما عليه إلا أن ينتظر غوث الخليفة بعد أن لبى نداءه.

ويوقع طاهر بن الحسين في قصة محبوس: "يطلق ويعتق . كما وقع في قصة مستمنح: يبل حاله.

ولعل القاسم المشترك في توقيعات طاهر الخزاعي الأنفة هو إيجازها الشديد، كما أنها تجيب صاحبها، وتمنحه ما طلب بأقل لفظ وأوجز معنى، فنجده في توقيعه الأول يأمر بإطلاق محبوس، كما نجده حينا يأمر بالصلات والعطايا، وحينا آخر يجير خائفا ويؤمنه، بينما يجيب في توقيعه الأخير أحد المستأمنين فيعطيه الأمان له ولعائلته، ويبدو أن طبيعة الموضوعات التي كتبت فيها التوقيعات السابقة، اقتضت هذا الإيجاز الشديد.

ومن توقيعات الوزراء التي وسمت بالإيجاز الشديد، توقيع جعفر البرمكي في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته: "يرحل عنكم.

ويلحظ هنا أن البرمكي في هذا التوقيع يبطل الظلم الذي لحق بهؤلاء القوم، ولا يخفى على أحد أن تحقيق هذا الغرض يوثق عرى العدل والأمن في المجتمع، فينطلق الناس مطمئنين إلى رسوخ قواعد العدل، غير آبهين بقوى الظلم إذا كان ثمة من يردع الظالمين ويقف في وجوههم. وتبدو الحاجة شديدة ههنا للإيجاز الذي وسم به توقيع البرمكي الأنف، فلا حاجة للإطالة والإسهاب لرفع الظلم عن هؤلاء القوم.

ويوقع الفضل بن سهل إلى صاحب الشرطة: ((ترفق تُوفق)). ووقع كذلك إلى حاجبه: ((تمهل وتسهل)) . يدعو الفضل في كلا التوقيعين إلى ضرورة التأني والترفق، ولا شك أن التوقيعين على إيجازهما الشديد فإنهما يطويان وراءهما منهج حكم وسياسة، يتمثل بضرورة التخطيط المسبق، والتروي قبل اتخاذ القرارات المختلفة، لما له الأثر الأكبر في نجاح هذه الأعمال وتأديتها على أكمل وجه.

وجاءت طائفة من التوقيعات العباسية في عبارة واحدة، كما في توقيع السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: من صبر في الشدة شارك في النعمة، ثم أمر بأرزاقهم.

لقد تلبس التوقيع السابق إطار الحكمة، الذي انتظمت فيه كثير من التوقيعات العباسية، وحري أن نلاحظ أن التوقيع والحكمة يقومان على مشبه واحد وهو الإيجاز، وهو مشبه يكاد يكون حلقة وصل بين هذين النوعين الأدبيين، ومن أجل هذا كانت التوقيعات تتلبس إطار الحكمة في كثير من الأحيان.

ونظر ذلك توقيع المنصور إلى أهل الكوفة وقد شكوا عاملهم: "كما تكونوا يولى عليكم. لحظ في هذا التوقيع أن المنصور اختزل الكلمات وأوجزها للرد على أهل الكوفة ورفض ظلامتهم وردها، ومع ذلك فإننا نجد رده وافيا شافيا.

وقد يقر بعضهم بعدم القدرة على رفع الظلم، وإحقاق الحق لتعذر الوسائل التي تمكن الموقع من تحقيق هذا الأمر، كما في توقيع طاهر بن الحسين في قصة رجل متظلم من أصحاب

نصر بن شبث: ((طلبت الحق في دار الباطل)) . كما نجده في توقيع آخر لا يتوانى في إحقاق الحق، فيأمر بإمضاء العقوبة من غير تريث أو تمهل، فوقع في قصة قاتل: لا يؤخر قتله. بينما يقتل ساعياً بعدم الالتفات إليه، فترتد وشايته وبالا عليه، فوقع في قصة ساع: ((لا يلتفت إليه)). إذ يبدو لنا جلياً من توقيعات طاهر بن الحسين السابقة، دقتها وإصابتها المعنى من جهة، وإيجازها الشديد من جهة أخرى، كما أن هذا الإيجاز جاء في مكانه، مناسبا للمقام الذي كتب فيه التوقيع من غير أن يأتي هذا الإيجاز على المعنى المراد أو ينتقص منه.

ومن توقيعات الوزراء التي جاءت في عبارة واحدة، توقيع أبي مسلم الخراساني إلى عامله ببلخ: ((لا تؤخر علم اليوم لغد)). ومنها أيضا توقيع جعفر البرمكي في قصة رجل تظلم من بعض عماله: ((أنا لمثله حتى ينصفك)). ووقع إلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه: لم نزرعك لنحصدك . إذ يشترك توقيعا جعفر البرمكي السابقان في سمة الإيجاز والبلاغة، في حين يتباينان في الموضوع، فهو يجيب المظلوم وينصفه في التوقيع الأول، جاعلا نفسه لدا لعامله الظالم، بينما يجيب عامله في التوقيع الثاني، مجددا ثقته به وبقدرته واستحقاقه لمنصبه.

أما الصاحب بن عباد فيوقع إلى رجل عصى له أمراً: ((العصا لمن عصى)) ، وهناك طائفة أيضاً تكونت من أكثر من عبارة، وهي كثيرة، ومنها توقيع السفاح إلى أخيه المنصور يحرضه على ابن هبيرة: ((لست منك ولست مني، إن لم تقتله)).

وهكذا بدأت التوقيعات في العصر العباسي تطول، فكانت بعض هذه التوقيعات تتكون من حرف واحد، وبعضها من كلمة واحدة، وأخرى تشكلت من كلمتين، بينما جاءت طائفة منها تتكون من جملة واحدة، وجاء معظمها يتكون من أكثر من جملة، في حين طالت بعضها لتتكون من فقرة قصيرة حتى وصل الأمر إلى أن طال التوقيع فأصبح بعضها على شكل رسالة قصيرة.

ومن أمثلة التوقيعات العباسية التي امتازت بالإيجاز الشديد توقيع الصاحب بن عباد، فقد كتب بعضهم إليه رقعة فيها: (إن رأى سيدنا أن ينعم بما سألته إياه فعل)، فزاد فيها ألفا، ورد الرقعة إلى صاحبها وبش بالتوقيع فلم يره وعرضها على أبي العباس الضبي فأراه الألف التي كتبها قدام فعل، أي (أفعل) . فجاء توقيع ابن العباد بحرف واحد أضافه، أجاب فيه طلب هذا السائل وأعطاه ما التمسه.

ومن التوقيعات التي تكونت من كلمتين، توقيع المهدي في قصة رجل شكا الحاجة: ((أتاك

الغوث)).

إن توقيع المهدي على وجازته الشديدة، ناطق برد لهفة هذا المحتاج، فما عليه إلا أن ينتظر غوث الخليفة بعد أن لبى نداءه.

المطلب الثاني: الصنعة

تشكل ضروب البديع وفنونه ملحظا أسلوبيا مهما في كثير من التوقيعات العباسية، فقد شاعت فيها المحسنات البديعية، وبخاصة السجع والجناس، فضلا عن الطباق والمقابلة والموازنة.

يعرّف ابن خلدون علم البديع بأنه: ((هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك)).

ولعله يتجلي للناظر من كلام ابن خلدون أن المحسنات البديعية تزين الكلام وتنمقه وتزيده حسنا وبهاء وجمالا، فالسجع يغذي السمع بخفة ألفاظه وسهولتها وعذوبتها، والجناس يكسو الأساليب رونقا وإشراقا، فهو يحسن المعاني بالربط بينها وتوجيه الأفهام نحوها، أما الطباق والمقابلة فكلاهما يضفي على المعنى حسنا وبهاء، لما لهما من أثر جليل في تثبيت المعنى وتقويته، وكل منهما يضفي على القول رونقا وبهجة، كما أنه يقوي الصلة بين الألفاظ والمعاني، ويجلو الأفكار ويوضحها.

أما الموازنة فإنها تضفي على القول إيقاعا وجرسا تطرب له القلوب، وتميل إليه النفوس.

ولا بد لهذه المحسنات أن تجري مجرى الطبع، وأن تصيب لب المعنى، من غير تكلف أو تعمل، فإذا تكلفها صاحبها وجرى وراءها، فإنها تعتقل المعاني وتحبسها، وتحرم الكلام رونق السلاسة والسهولة، فتغدو سببا من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده.

ومثال ذلك توقيع السفاح إلى كاتب جنده وقد شغبوا عليه بالأنبار: ((بلغ المفترين عني: أبرقتم بأعجازكم، أم عظمت نعمة الله عليكم في دينكم ودنياكم؟! فلا تكونوا عظة العقلاء، وزرية الجهلاء، فتحبط أعمالكم، وتخيب آمالكم، والعطاء غير مؤخر عن وقته، إن شاء الله)).

جاء السجع في كلمتي (العقلاء، الجهلاء)، فالسجع هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وأفضله ما تساوت فقره ، ومثاله في التوقيع السابق في (فتحبط أعمالكم، وتخيب أمالكم) فقد تساوت الفقرتان السابقتان، فضلا عن توافق الحرف الأخير في آخر كل فقرة، وهذا ما يسمى أفضل السجع. كما يلحظ أثر السجع هنا في موضوع التوقيع، فالسفاح في توقيعه يتوعد الخارجين عليه، بأن يكونوا عبرة لغيرهم إذا ما استمروا في طريق الشغب والفوضى، وهذا التوافق بين الفواصل أثر في تقوية المعنى وتأكيده من جانب، كما لفت انتباه السامع إليه من جانب آخر.

وكما وقع المنصور إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: ((طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد)) .

وبرز السجع في كلمتي (الفساد، القياد)، فجاء التوافق في حرفي الألف والدال، كما تساوت فقره ما أضفى معنى بليغا في توقيع المنصور لتوجيه عامله لضرورة القضاء على الفساد والمفسدين.

أما الرشيد فيوقع إلى صاحب المدينة المنورة: ((ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد)) .

وجاء السجع في (السهاد، الرقاد)، مع تساوي الفقرات، وجاء ناطقا بما سببه أهل المدينة للرشيد من قلق وأرق، جعلاه لا يهنا بلذة النوم وراحة الليل، ولا سيما أنهم عرفوا بعدائهم للدولة ومعارضتهم لسياستها.

ورفع أهل الكوفة قصة إلى المأمون يشكون عاملا، فوقع: ((عيني تراكم، وقلبي يرعاكم،

وأنا مول عليكم ثقتي ورضاكم)).

تتابع السجع في توقيع المأمون في ثلاث فواصل، وجاء في الكلمات (تركم، يرعاكم، رضاكم)، ليضفي توازناً وتسلسلاً يتواءم مع موضوع التوقيع، في الرد على المتظلمين فقد وعدهم المأمون بالرعاية، وإبطال الظلم الذي وقع عليهم.

ومن توقيعات الوزراء التي ورد فيها السجع توقيع يحيى البرمكي في تهديد من شُكي إليه ظلمه: بئس الزاد إلى المعاد، ظلم العباد .

يبدو السجع في كلمتي (المعاد، العباد)، وهو من التوقيعات التي تتضمن توجيها شديد اللهجة، إلى الولاة والعمال الذين يتعدون على حقوق العباد.

وقد تنحى التوقيعات منحى الدعابة والسخرية، كما في توقيع محمد بن عبد الملك الزيات على رقعة رجل توسل إليه بقرب الجوار منه: ((الجوار للحيطان، والتعطف للنسوان)).

ويبدو السجع واضحا في كلمتي (الحيطان، النسوان)، وهذا السجع يدعم المعنى الذي يتضمنه التوقيع وهو السخرية والتهكم من هذا المتوسل، كما يتجلى كذلك توازن الجمل وتساوي الفقر.

بينما تمثل الجناس – بنوعيه التام والناقص- في طائفة أخرى من التوقيعات، فزادها حسنا وبهاء، كما في توقيع المهدي إلى يوسف البرم حين خرج بخراسان: ((لك أماني ومؤكد أيماني)).

وجاء الجناس الناقص في كلمتي (أماني، أيماني)، وذلك بزيادة حرف الياء في الكلمة الثانية، فالجناس أن يتشابه اللفظان في النطق، ويختلفان في المعنى. وقد يكون هذا التشابه تاما بالحروف والشكل والترتيب والضبط وهو ما يسمى بالجناس التام، أما إذا اختلف أحدها أو أكثر فإنه يسمى جناسا ناقصا، وهذا ما ظهر في التوقيع السابق حيث اختلف عدد الحروف بين

الكلمتين، ولا شك أن مناسبة الألفاظ هنا تجدد ميلا وإصغاء لها، فتواءم ذلك مع موضوع التوقيع السابق في إعطاء الأمان لطالبه.

ووقع المأمون إلى عامل: ((لو استقامت لك الطريقة لرضيت الخليقة، فإن لم تدع فيهم العدل، راعينا فيك العزل)).

ويبدو الجناس في (العدل، العزل)، وهو جناس ناقص، إذ اختلف حرف واحد، أما موضوع التوقيع فيتضمن دعوة الوزراء والعمال وغيرهم من طوائف المسؤولين في الدولة إلى وجوب أخذ الرعية بمقتضيات العدل، ورد المظالم وسياسة الناس بالمعروف وإلا فإنه يستحق العزل.

أما جعفر البرمكي فقد وقع إلى عامل له: ((إنك كثير الشكاية، قليل النكاية، جري في ميدان العلل، بطيء في ميدان العمل)) .

في التوقيع شاهدان على الجناس الناقص، الأول في (الشكاية، النكاية) والثاني جاء في كلمتي (العلل، العمل)، وكلاهما كان باختلاف أحد الحروف، ولا شك أن التشابه في الألفاظ السابقة يلفت ذهن السامع إلى معانيها.

ورفع إلى عبد الله بن طاهر في إفساد بعض البيوتات، فوقع: ((إن أهل البيت إذا كثروا

ففيهم الغرز والغرر)) .

برز الجناس الناقص في كلمتي (الغرر، الغرر)، وكان الجناس باختلاف حرف واحد بين اللفظتين، ويبدو أن عبد الله بن طاهر قد أفاد من هذا التشابه بين اللفظتين، للدلالة على معنيين متباينين يؤديان الغرض الذي كتب فيه التوقيع.

ويوقع عبيد الله بن سليمان بن وهب إلى أحمد بن طولون: ((اتق الله في الأرصاد، فإن الله بالمرصاد)) .

تمثل الكلمتان (الأرصاد، المرصاد) نوعين من فنون البديع هما الجناس الناقص والسجع، وكلاهما أثر في المعنى المقصود، والغاية التي كتب لها التوقيع.

أما مثال الجناس التام، فيظهر جليا في توقيع الصاحب بن عباد حيث رفع إليه أن رجلا غريب الوجه يدخل داره ويسترق السمع: ((دارنا هذه خان، يدخلها من وفي ومن خان)) .

إذ جاء الجناس التام في كلمة (خان)، إذا وردت في المرة الأولى بمعنى المكان، وفي المرة الثانية بمعنى صفة الغدر والخيانة.

المطلب الثالث: التصوير

لم تكن التوقيعات تعنى بالتشبيهات والصور، إلا ما جاء عفو الخاطر من غير معاناة أو تكلف، لأن جل اهتمامها كان ينصب على إصابة المعنى .

ويمكن القول إن التوقيعات العباسية التي حفلت بهذه الصور والتشبيهات كان لها وقع حسن، وأثر جليل في أداء المعنى المقصود وإصابته على أحسن وجه.

ومن التوقيعات التي عنيت بالصور والتشبيهات توقيع المنصور إلى قائد من قواده أتى محظورا: ((يا هذا، إن كان رأسك قد أثقلك خففنا عنك)) .

أراد المنصور أن يخفف عن هذا القائد، بقطع رأسه، إذ شبه عملية قطع الرأس بالتخفيف، وهذا التوقيع على إيجازه فإنه ناطق بحزم المنصور، ولهجته الشديدة مع هذا القائد، وحرصه على مصلحة رعيته وأمنهم وذلك بتوجيه الولاة والقادة والأخذ بأيديهم وردعهم إذا اقتضى الأمر، وقد يصل الأمر إلى تهديدهم بالقتل.

وكتب المتولي على أذربيجان إلى يحيى بن خالد البرمكي: أما بعد : فإن حقوقا قد منعت وأموالا قد تحيقت، فإن رسمت ببيع ذلك وكشفه بلغ ما يوفي على خراجها فلما وقف يحيى بن برمك على الرقعة كتب في ظهرها: "وقفنا على هذه الرقعة المذمومة، وسوق السعاة عندنا - بحمد الله - كاسدة، وألسنتهم لدينا معقولة، وما بعثناك إلى الناحية لتحيي العظام ولا لتتبع الآثار المذمومة، فخذ الناس على قانونهم، وطالبهم بما في ديوانك، ودع التكشف والتتبع، فهذه مدة تمضي وأيام تنقضي، فإما ذكر جميل أو حزن طويل، وجنبني وتجنب قول جرير:

وكنت إذا نزلت بدار قوم	رحلت بخزية وتركت عارا

اتكأ يحيى البرمكي في توقيعه على التصوير والتشبيه في أكثر من موضع، فقد شبه أقوال السعاة والوشاة بالبضاعة الكاسدة، فقال: (سوق السعاة عندنا كاسدة)، كما عقل ألسنتهم وربطها بعدم الإصغاء لوشاياتهم، وتبدو مهارة يحيى البرمكي ههنا في اختيار الألفاظ وانتقائها، واستشفاف الصور والتشبيهات لتؤدي المعنى، وتقوي لغة التوقيع ومضمونه.

كما نجده يحسن التصوير كذلك في توقيع آخر في رقعة رجل مليح الخط رديء الكلام: الخط جسم روحه الكلام، ولا ينتفع بجسم لا روح له .

أفاد البرمكي في هذا التوقيع من ثنائية الجسم والروح، لإحكام الصلة والعلاقة بين الخط والكلام، فهما كالروح والجسد، فهما وجهان لعملة واحدة لا انفصام بينهما، فكان تشبيها بليغا، يجلو الصلة : بين المشبه والمشبه به ويظهرها. بينما تمثلت الاستعارة في طائفة أخرى من التوقيعات، كما في توقيع جعفر البرمكي في قصة متنصح: ((بعض الصدق قبيح)) .

أضفي البرمكي صفة القبح على الصدق، فجعل الصدق إنسانا قبيح الشكل، ويبدو هذا التصوير في مكانه اللائق، إذ إن النفس البشرية تميل بفطرتها إلى الجمال، وتنفر من القبح

وترغب عنه.

ووقع الفضل بن سهل: ((إن أسرع النيران التهابا أسرعها خمودا، فتان في أمرك، إن شاء الله)) ، فيرسم الفضل صورة دقيقة لمن يثور بسرعة، فيتسرع في إصدار قراراته، فهو كالنار التي تلتهب بسرعة ثم ما تلبث أن تخمد وهكذا الغضب فهو يبدأ قويا شديدا ثم يتضاءل إلى أن تخف حدته. وأراد الفضل بهذه الصورة أن يعظ غيره فيتأنى ويتروى في قراراته قبل أن يجني نتيجة سرعته وعجلته فلا يحصد بعدها إلا الندم والخسران، ولعل هذا التوقيع من التوقيعات التي تتضمن التوجيهات السياسية التي كان الخلفاء والوزراء يوجهون بها قادتهم وعمالهم.

ومن التوقيعات التي سلكت هذا المسلك توقيع الصاحب بن عباد وقد كتب إليه بعض الفضلاء يعتذر من ترك حضوره لخوف الثقل على حضرته، فوقع: ((متى يثقل الجفن على العين)).

ويبدو أن هذا المعتذر قريب من الصاحب، قرب الجفن للعين، وليس هذا فحسب فهو يحميها ويحرص عليها. وهذا التشبيه بليغ فكما الجفن يلازم العين ويطبق عليها، كان هذا المعتذر يلازم نفس الصاحب، لذا استنكر الصاحب عليه هذا الجفاء والامتناع عن حضور مجلسه.

كما برز المجاز في عدد من التوقيعات العباسية ومنها توقيع المنصور إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: ((طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد)) .

فجاء المجاز في كلمة (عسكرك)، والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة دالة على عدم إدارة المعنى الأصلي .

وفي توقيع المنصور فقد ذكر العسكر، وأراد جنوده وأفراد جيشه ونوع العلاقة في هذا المجاز المحلية حيث ذكر المحل، وأراد أهله. ونظـر ذلك توقيع طاهر بن الحسين في قصة رجل متظلم من أصحاب نصر بن شبث: ((طلبت الحق في دار الباطل)) .

فالمجاز في كلمة (دار)، فليس للباطل دار تختص به، وإنما ذكر الدار وأراد من بها ممن يقولون بالباطل، ويبتعدون عن قول الحقِ، فهو مجاز علاقته محلية. ووقع بعضهم إلى وكيل له على عمارة بساتينه وضياعه: ((استكثر من شجر الفرصاد: فإن خشبها حطبٌ، وثمرها رطب، وورقها ذهبٌ)) .

شعبة الاعلام و الاتصال الحكومي

2023